Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256
مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ والقانونيّةِ

العدد الثالث عشر – حزيران – June / 2025

الطّبيعة الصامتة في كتاب (نسيم الصبا - لابن حبيب الحلبيّ) الكونيّات نموذجاً

طارق كطيفة اغجيري العجلان[1]

[1] لبنان

dr.tareq7676@gmail.com

ملخص. تتناول هذه الدراسة تحليل المكونات الكونية والصور البلاغية في نصوص كتاب نسيم الصبا لابن حبيب الحلبي، مركزة على ما يسمى بـ"الطبيعة الصامتة" أو التجليات الكونية غير البشرية في النص الأدبي، مثل الماء، الهواء، الأجسام السماوية، النبات، والحيوان. تسعى الدراسة إلى الكشف عن الأبعاد الجمالية والرمزية التي توظفها هذه العناصر الكونية في بناء دلالة النص وتكوين رؤيته الشعرية والإنسانية. كما تعتمد الدراسة منهجًا بلاغيًا تحليليًا للكشف عن التشكيل اللغوي والصوري لهذه الكائنات في سياقها الجمالي والدلالي، مما يُظهر دورها في إضفاء البعد الروحي والتأملي على النص. وتبرهن الدراسة على أن الطبيعة الصامتة في نسيم الصبا ليست مجرد خلفية جمالية، بل هي كائن حي يشارك في إنتاج المعنى وإيصال الإحساس.

الكلمات المفتاحية: الطبيعة الصامتة – ابن حبيب الحلبي – نسيم الصبا – الكونية في الأدب.

Abstract. This study explores the cosmic components and rhetorical imagery within Naseem al-Saba by Ibn Habib al-Halabi, with a focus on "still life" or non-human natural elements in literary discourse—such as water, air, celestial bodies, plants, and animals. The research

aims to reveal the aesthetic and symbolic functions these cosmic elements serve in shaping the text's meaning and poetic vision. Employing a rhetorical-analytical approach, the study uncovers how such imagery operates within the linguistic and artistic structure of the text, contributing to its spiritual and contemplative dimensions. Ultimately, the study argues that the still life in Naseem al-Saba is not merely decorative, but plays a vital role in generating meaning and emotional resonance.

Keywords: Still Life – Ibn Habib al-Halabi – Naseem al-Saba – Cosmic Imagery in Literature

المقدّمة

ازدهرت الحياة الثقافيّة في بلاد الشام في القرن الثامن للهجرة، ونشطت الحركة العلميّة والأدبيّة، فقد عمل سلاطين المماليك على تشجيع العلماء وإدخالهم إلى مجالسهم، واستشارتهم في القضايا المهمّة، وضمنوا لهم حياة ميسورة، وكان المماليك، على الرغم من أصولهم الأجنبيّة، يؤمنون بالإسلام، ويخلصون له، ويتحمّسون لعلومه وآدابه ولغته، فقاموا بإنشاء مدارسَ كثيرةٍ في مصر والشام والحجاز، بقيت شواهد حرصهم على نشر العلم وتعميمه.

فقد جعل المماليك اللّغةَ العربيّة لغة رسميّة في دواوين الدولة، وكان ألمع دواوينها "ديوان الإنشاء" الذي اختصّ بالمكاتبات الديوانيّة العليا، وكان يُختار للعمل فيه أبرعُ أهلِ الأدب والكتابة، وكان لديوان الإنشاء أثر كبير في ازدهار الأدب في مصر والشام، وفي إحياء اللغة العربيّة ونهضتها، ومن هنا ازدهر النثر وصار منافسًا للشعر في ميادين شتى. وظهرت الرسائل الفنيّة في المديح والرثاء والوصف، والهجاء، والزهد، والاعتذار، والتهنئة، والعزاء، وقد غطّت الأغراض التي كان الشعر يشغلها جميعها.

وقد ظهر في هذا العصر الكثيرُ ممّن امتلكوا أَزِمّة البيان في الصناعتين، ولم يكن ذلك شائعًا قبل هذا العصر، وكأنّما وظّف هؤلاء موهبتهم الشعريّة في صياغة النثر الفنّي فجاؤوا بأحسن ما عندهم من نتاج، وأبرع ما امتلكوه من صياغة، وكثير من المؤلّفين زاوجوا بين الشعر والنثر. ومن هؤلاء صفي الدين الحلي، وجمال الدين بن نباتة، وشهاب الدين بن فضل الله العمري، وعبد السلام بن غانم المقدسي، وزين الدين عمر بن الوردي، وصلاح الدين الصفدي، ومنهم أيضا ابن حبيب الحلبي، الذي أجاد الجمع بين فنّي المنظوم والمنثور، وترك تراثًا قيّمًا في الفنّين، وهذا ما شجّعني على اختياره نموذجًا لدراسة

الأدب في ذلك العصر، ونظرًا لتعدّد الفنون الأدبيّة وتنوّعها فقد آثرت أن أختصّ بدراسة فنّ جميل رائع أجاد فيه الكتاب آنذاك شعرًا ونثرًا؛ ألا وهو (وصف الطّبيعة) الذي كان لابن حبيب الحلبي أثرُ قيّمُ فيه؛ سمّاه كتاب (نسيم الصبا) خصّص القسم الأكبر منه للوصف بأنواعه المختلفة، وكان لوصف الطبيعة منه الحظّ الأوفر.

مؤلّف الكّتاب:

هو بدر الدين، أبو محمد الحسن، بن عمر، بن الحسن، بن حبيب الحلبي الدمشقي، الكاتب والشاعر، نشأ في أسرة علم وفقه وأدب، وتتلمذ على مجموعة من علماء عصره. أخذ الأدب عن جمال الدين بن نباتة وغيره، وولي نيابة القضاء ووظائف إدارية ودينية الى جانب عمله في التدريس، ورحل إلى عدد من البلدان كالقاهرة والإسكندرية؛ سعيا منه لتحصيل العلوم والآداب.

وقد أشاد به كل من ترجم له، كالعمري، وابن العماد الحنبلي، وغيرهما، ونعتوه بالصفات الحميدة، والأخلاق الحسنة، وسعة العلم. وممن ذكره ابن تغري بردي (ت 874 هـ) قال فيه: "كان له فضل، ومشاركة جيدة، واليد الطولى في النظم والنثر، وله سماع ورواية، ومؤلفات مفيدة. وقال أيضا: " باشر كتابة الحكم وكتابة الإنشاء وغير ذلك من الوظائف الذهنية، وكان إمام عصره في صناعتي الإنشاء والشروط (القضاء) وله تصانيف مفيدة".

وقال فيه زين الدين الحنفي (ت 920هـ): "كان فاضلا، رأسا في الأدب، وله عدة مؤلفات وتاريخان نادران".

تُوفِّي – رحمه الله – سنة تسع وسبعين وسبعمائة للهجرة، في حلب، عن عمر ناهز سبعا وستين سنة.

موضوع البحث: (وصف الطّبيعة عند الحلبيّ)

تتناول هذه الدراسة فصولًا تجمع بين النثر الأدبي والشعر؛ خصّصها الأديب الشاعر الحلبي في كتابه المسمّى (نسيم الصبا) لوصف الطبيعة ، فهو لون جميل في أدبنا العربي الأصيل، لم تتناوله الدراسات بالقدر الكافي، وهو بحاجة إلى دراسة وافية مستقلّة.

وقد استُخدم هذا النوع في العصور القديمة لوصف الأطلال والناقة والمحبوبة والرحلة والصيد، وكذلك لوصف الحالات الشعوريّة التي كان يعيشها الشاعر عند رفض حبيبته له، أو بعده عنها، أو

مَجَلّةُ تَسْنِيمِ الدَولِيّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

العدد الثالث عشر – حزيران – June / 2025

لقائهما معا. كما استخدم في العصر الحديث في وصف معاناة الشعوب التي يعيشونها؛ بسبب الحروب، والاضطهاد، والفقر، والخضوع لحكم الظلام.

نقد المدوّنة (كتاب نسيم الصّبا):

هو كتاب أدبيّ، اشتمل على موضوعات عديدة، جمعت بين طرائف الوصف، وجمال الأسلوب، وبديع العبارة، صاغها مؤلّفها على طريق المقامة، والسرد القصصي المبني على الخيال، مضمّنًا إيّاها نصوصًا من الشعر؛ من نظمه، "ومن نظم غيره على سبيل التضمين"؛ على حدّ قوله: "حتى يشعر قارئ الكتاب بالمتعة، والرغبة في مواصلة القراءة من غير كلل أو ملل".

ولهذا أعُجب القدماء بهذا الكتاب، وقد نقل المقرّي التلمساني (ت 1041هـ) أقوال "طائفة من العلماء الذين قرّظوا الكتاب، وأثنوا على جهد صاحبه، وذكروا ما لهذا الكتاب من منزلة كبيرة، حظي بها، وسار ذكره في الآفاق، واشتهر صاحبه به، حتى صار ملاذا يلجأ إليه أهل الذوق والأدب للاسترواح، والتلذّذ بقراءة فصوله، والتمتّع بذكر مباهجه".

أسباب اختيار الموضوع:

تكمن أهميّة البحث في دراسة وصف الطبيعة في نموذج أدبي يجمع بين الشعر والنثر، وكيف تمكّن الكاتب ببراعته، أن يقدّم فصولًا أدبيّة؛ جامعة بين النثر والشعر، تمثّل شغف أهل عصره من أبناء الشام بطبيعة بلادهم وجمالها الفتان، ما مكّنهم من تطوير فنّ الوصف، والارتقاء بأساليبه الفنيّة.

ومع أنّ ابن حبيب الحلبي اشتهر بوصف الطبيعة، لم أجد – مع البحث والتقصّي – دراسة علميّة منهجيّة قائمة برأسها تناولت هذا الجانب، توضّح خصائص هذا الغرض الأدبي، وما امتاز به من صور وأساليب فنّية.

أهمّية الدراسة:

تنبع أهميّة هذه الدراسة من كونها ستقدّم إضافة جديدة إلى المكتبة العربيّة تكشف بعضًا من إبداعات الأديب الشاعر ابن حبيب الحلبي، الذي لم يحظَ بدراسة منهجيّة منصفة، على الرّغم ممّا قدّمه إلى المكتبة العربيّة من مؤلّفات نثريّة وشعريّة قيّمة. وكذلك تقديم دراسة منهجيّة لفنّ راقٍ اشتهر في ذلك العصر وتطوّر؛ هو (وصف الطّبيعة).

ستحاول الدراسة التعرّف إلى وصف الطبيعة الصامتة في الأدب العربيّ القديم بوجه عامّ.

مَجَلّةُ تَسْنِيمِ الدَولِيّة
لِلعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

العدد الثالث عشر – حزيران – 2025 / June

الدراسات السّابقة:

موضوع وصف الطبيعة في عصر حكم المماليك، بوجه عام، تناولته بعض الدراسات الأدبية؛ منها:

1- دراسة بعنوان: (شعر الطّبيعة في العصر المملوكيّ الأوّل 648 – 784 هـ) رسالة تقدم بها الباحث موسى علي موسى النجادي، لنيل درجة الماجستير، إلى جامعة الخليل في فلسطين، سنة 2006 م، وأجيزت.

أشار الباحث في (فهرس الأعلام) إلى ابن حبيب ص 157 وبالرجوع إلى الصفحة المشار إليها لم أجد ذكرًا لابن حبيب؟! مع أنّه أورد ترجمة مقتضبة لابن حبيب الحلبي في تراجم من ذكرهم من الشعراء.

2- هناك دراسة ثانية، بعنوان (الرسائل الوصفية في العصر المملوكيّ الأوّل) وهي أيضًا رسالة ماجستير تقدّم بها الباحث عاهد طه عبد اللطيف عيال سلمان، إلى جامعة مؤتة في الأردن، 2007 م، وقد أجيزت.

لم أجد دراسة خُصِّصت لدراسة هذا الفنّ عند الحلبي، تلك القامة الأدبيّة التي احتلّت موقعًا مميّزًا في ذلك العصر، بشهادة مترجميه. وقد أهملت الدراسات السابقة ما ينبغي التوقّف عنده من إبداعاته اللغوية، وما امتاز به أدبه من براعة في انتقاء الألفاظ، ومتانة في السبك اللغوي، وإجادة في استخدام الأساليب البلاغيّة والصور، ولعل ذلك من أبرز المزايا الفنّية في أدب الحلبي التي يجدر أن يتوقّف عندها الباحث.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة كتاب (نسيم الصّبا) قراءة متعمّقة؛ وتبيّن خصائص وصف الطبيعة بأغراضه المتنوّعة، ثمّ تلمس جماليّات النصّ الأدبي فيه، وإبراز خصائصه الفنّية، وتبيّن عناصر التشكيل الفنّي في نثره وشعره، بالإضافة إلى دراسة العلاقة بين فنَّي المنظوم والمنثور، وتضافرهما في نقل تجربة الكاتب الشاعر إلى المتلقّي. مع بيان مدى تمثيل الأديب لخصائص العصر الذي عاش فيه.

إشكالية الدراسة:

النصّ الأدبيّ عند الشاعر ابن حبيب فيه من الإبداع الفنّي، وعمق الرؤية، والبراعة اللغويّة والبلاغيّة ما يستحقّ الوقوف عنده مليًّا، وستسعى هذه الدراسة قدر المستطاع إلى الوقوف على جماليات النصّ، والكشف عن رؤية الكاتب وإبداعاته، وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

س1 ماهي نواحي الجدّة والإبداع في وصف الطبيعة عند الحلبي؟

س2 –هل نجد في وصف ابن حبيب للطبيعة تمثيلًا حقيقيًّا للأدب في عصره؟

فرضيّات الدراسة:

نتوخّى في هذه الدراسة تحقيق أمور عدّة؛ من أهمّها:

أ. بيان خصائص فنّ وصف الطبيعة عند الحلبي خصوصًا، وفي عصر المماليك على وجه العموم.

ب. الكشف عن مدى تمثيل الأديب الحلبي لخصائص الأدب في عصره.

منهج الدراسة:

سيُعتمَد في هذا البحث على "المنهج الوصفي التحليلي"، في دراسة النصوص الأدبية النثريّة والشعريّة، فهو المنهج الأكثر مواءمة لهذا الجانب؛ إذ يمكّننا من الكشف عن براعة الأديب وحذقه في بناء قصائده ونثرياته، وإظهار الخصائص الفنيّة التي امتاز بها كتابه. كما تستخدم الدراسة المنهج التاريخي؛ لتبيّن التطوّرات الفنّية لـ (وصف الطبيعة) في عصر الحلبي، وعلى يده بوجه خاصّ، كونها ترتبط بعصور سابقة (العصر العباسي). كما قد تعتمد منهجًا مقارنًا أحيانًا بحسب ما يقتضيه البحث.

وسأعتمدُ في هذه الدراسة على مجموعة من المصادر والمراجع التي استطعت الوصولَ إليها، والاقتباسِ منها لتعزيز ما أتوصّل إليه من نتائج، أو للبرهان على أمورٍ تاريخيّة وفنيّة، ويأتي في مقدّمة هذه المراجع:

– القرآن الكريم.
– كتاب (نسيم الصّبا) لابن حبيبٍ الحلبيّ، بطبعتين مختلفتين.
– بعض مؤلّفات ابن حبيبٍ الحلبي، ومن أهمّها: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور.
– ديوان الإمام المؤرّخ ابن حبيب الحلبي (710 – 779هـ)، جمع وتوثيق وتقديم أ. د. حسن محمد عبد الهادي.

العدد الثالث عشر – حزيران – June / 2025

- ذهبيّة العصر لابن فضل الله العمري، تحقيق إبراهيم صالح.
- ومراجع متنوّعة في علوم اللغة والنقد والبلاغة والمعاجم، وغيرها.

ولا بدّ من التنويه أنّني أشرت إلى الاقتباسات بحاشيةٍ مرجعيّة، وتوخّيتُ الدقّة في توثيق مواضعها في الكتب المعتمدة.

وقد تألّفت الدراسةُ من ثلاثةِ فصولٍ، اهتمّ الفصل الأوّلُ بتقديم لمحةٍ عن الظروف التاريخيّة التي نشأ فيها الأديبُ، والتعريفِ به وبمراحلِ حياته وعلمه ومؤلّفاته، أمّا الفصلُ الثّاني فيُعَدّ صُلبَ الدّراسة، وتركّز البحثُ فيه على فصول الكتاب، فحلّلتها تحليلًا عميقًا، كما درستُ الوصفِ في الفصول المناسبة للبحث، واستقصاء فنّ الوصفِ عند الكاتبِ في تلك الفصول، ليأتي الفصل الثّالثُ مخصّصًا لدراسة العلاقة بين الشّعرِ والنثر، ودراسة الخصائص البلاغيّة في الفصول المدروسة بشكلٍ يتناسبُ مع موضوع الدراسة بشكلٍ عامّ، وفي الفصلين الثاني والثالث يبرز الجانب البحثي، ويمكن عدّهما الجانب التطبيقي من البحث، وقد أنهيتُ الدراسةَ بخاتمةٍ تضمّنت أهمّ النتائج والمقترحات والتوصيات.

وصف الطبيعة وموضوعاته

تمهيد:

ممّا لا شكّ فيه أنّ النفس البشريّة افتتنت بالطبيعة المحيطة بها، فقد كان الوصفُ أبرز أغراض الأدب؛ إذْ تطوّر مع تطوّر الإنسانِ، وقد أدرك النقادُ العرب القدماء العلاقة الوثيقة بين الوصف والرؤية البصريّة، فكان تحديدهم لا يكاد يخرج عن دائرة المحاكاة بمعناها المباشر، فقد وضع "أبو هلال العسكري" معيارًا يحدّد فيه مدى تحقّق المقاربة بين الموصوف المرجعي، والموصوف الأدبي كأداة للحكم على جودة الوصف من عدمه وذلك في قوله: "ينبغي أن تعرف أنّ أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتّى كأنّه يصوّر الموصوف لكَ فتراه نصب عينِك" (العسكري، 1984، ص 128)، وهذا المعيار نجده عند "قدامة بن جعفر" في كتابه "نقد الشعر" إذ يقول في باب (نعت الوصف): "أقول: الوصف إنّما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، ولمّا كان أكثر وصف الشعراء إنّما يقع على الأشياء المركّبة من ضروب المعاني، كان أحسنهم وصفًا من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركّب منها، حتّى يحكيه بشعره، ويمثّله للحسّ بنعته" (قدامة بن جعفر، 1979، ص 118–119)، وابن رشيق القيرواني لا يخرج عن هذا الفهم للعلاقة بين الوصف والرؤية البصريّة فيقول: "..

وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتّى يكاد يمثّله عيانًا للسامع..." وكما قال آخرون: أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرًا" (ابن رشيق القيرواني، 1972، ص 294).

فالغاية من الوصف تتمثّلُ في إعادة رسم صورة الموصوف بأجزائه الدقيقة؛ من خلال استعادة الصورة التي سبق للواصف أن رآها قبل مرحلة الوصف، كي ينقلَ رؤيته الموصوف للمُتلقّي الذي يصفُ له من أجل أن يجعله يشتركُ في الرؤية التي سيطرت على الواصف قبل أن يبدأ الوصف، والتي تتكوّن من خلال الرؤية البصريّة؛ إذ تثيرُ هذه الرؤية الانفعال الداخليّ لدى الواصف، فيتحد بما يراه، وينتقي من الألفاظ ما يجعله قادرًا على رسم هذه الصورة بتفاصيلها الدقيقة.

وكلّما كان الواصفُ ماهرًا، وقادرًا على نقل جزئيّات اللوحة الموصوفة بشكلٍ دقيق، ازدادت فاعليّة الوصفِ وظهرت قيمته الحقيقيّة، من خلال هذه القدرةِ على جعل الجزئيّات ماثلةً أمام المتلقّي التي لم يرَها، فيشترك هذا المتلقّي في فعل الوصفِ بشكل عميقٍ، وكأنّه يرى الموصوف متجسّدًا أمام عينيه كما أراد "أبو هلال العسكري"، أن يرى المتلقّي الموصوفَ نصبَ عينِه، وكما رأى غيره من النقّاد الذين رأوا أنّ الوصفَ البليغَ هو ما يجعلُ السمعَ بصرًا.

ولا شكّ في أنّ الوصفَ رافقَ الإنسانَ منذ وعى ذاته ومحيطه، فعبّر عن تلك الذاتِ وتفاعله مع المحيط بأشكالٍ مختلفةٍ، قبل أن يعبّر عن ذلك باللّغةَ التي كانت خاصّيته وحده، فقد وصف كلّ ما وصلت إليه عينه، بوسائل تعبيريّة مختلفة، كالرموز والإشاراتِ، وحين ارتقى وتطوّر، كانت اللّغة وسيلته الأرقى، فحاول جاهدًا أن يصوّر بالألفاظ والحركات ما يشيرُ إلى مرحلة اكتشاف ما في الكون من ظواهر ونواميس، تتشابه حينًا وتتناقض حينًا آخر، فراح يقابل ويقارن بين هذه الظواهر كي يصل إلى نتائج واستدلالات، ينقلُها إلى غيره من بني جنسه بوساطة الاتصال اللفظي، فيجعلهم مشاركين له فيما توصّل إليه.

وهذا ما أكّده إيليا حاوي في قوله: "يلازم الوصف طبيعة النفس البشريّة، خاصّةً في طور البداوة، إذ تستبدّ بها نزعة التقليد. فالبدائي ينسخ مظاهر الطبيعة، ببعض الرسوم والإشارات على جدران الكهوف والمغاور، ولا يعتمُ أن يرتقي محاولًا أن يصوّر وينقل بالألفاظ، مستعيضًا بها عن الخطوط والإشارات. ولعلّ هذه النزعة، ترافق مرحلة تعرّفه على الكون واكتشاف نواميسه، إذ لا يعود يكتفي بأن يشخَص أمام الظواهر بل يقابلُ بينها ويستنتجُ منها مستخلصًا الشبه بين المظاهر المختلفة في وجهٍ من الوجوه" (حاوي، 1959، ص 5).

بعد ذلك نال الوصفُ اهتمامَ الأدباءِ، وصارَ غرضًا رئيسًا في نتاجاتهم الأدبيّة؛ الشعريّة والنثريّة، فقد نجده في الغزل والمديح والرثاء والفخر بالبطولات، كما نجده في التعبير عن علاقة الإنسان بما يحيط به من طبيعة، ثمّ تطوّر إلى أن نال شيئًا من الاستقلاليّة فصار غرضًا قائمًا بحدّ ذاته بعد أن كان متداخلًا مع تلك الموضوعات التي ذكرتها.

ويمكن أن نستنتج أنّ الوصف من أقدم مضامين الشّعر والنّثر الأدبي، بوصفه غرضًا من الأغراض الرئيسة للكلام بوجه عامّ، وهذا ما يدفعني إلى تعريف الوصف لغةً واصطلاحًا.

الوصف لغةً:

جاء في لسان العرب لابن منظور: وصف: "وصَف الشيءَ له وعليه وصْفًا وصِفةً: حَلاَّه، والهاء عوض من الواو، وقيل: الوصْف المصدر والصِّفةُ الحِلْية، الليث: الوصف وصفك الشيء بحِلْيته ونَعْته. وتواصَفُوا الشيءَ من الوصف. وقوله عزّ وجلّ: ﴿... وربُّنا الرحمن المُستعان على ما تصفون﴾ (القرآن الكريم، ج17، سورة الأنبياء، الآية: 112)؛ أَراد ما تصفونه من الكذب. واستوْصَفَه الشيءَ: سأَله أَن يَصفه له. واتَّصَف الشيءُ: أَمكن وصْفُه." (ابن منظور، 1999، ج15، ص 316، باب "وصف").

الوصف اصطلاحًا:

ورد تعريف الوصف اصطلاحًا في معجمات المصطلحات الأدبيّة كما يأتي، هو: "إنشاء يُراد به إعطاء صورة ذهنيّة عن مشهدٍ أو شخصٍ أو إحساس أو زمان للقارئ أو المستمع. وفي العمل الأدبيّ يخلق الوصف البيئة التي تجري فيها أحداث القصص" (وهبه، والمهندس، 1984، ص 433).

وهذا يعني أنّ الوصف تصويرٌ لما تقع عليه عين الأديب، أو لِما يتخيّله، من مشاهد بوساطة الألفاظ والتشابيه والاستعارات ليعبّر عن مشاعره الخاصّة أمام هذه المشاهد، ولينقل للقارئ أو المستمع صورةً كاملة بأبعادها الخارجيّة والداخليّة، وما اعتراه من انطباعاتٍ مختلفة أمامها، لذا يجب ان يتميّز الواصف برهافة الحسّ، والخيال الواسع، ليكون قادرًا على نقل الصور الدقيقة المشحونة بالعواطف والانفعالات، ويشمل الوصف الأشخاصَ والأشياء والطبيعة، فيصوّر الواصفُ هذه الموضوعات من خلال رؤية موضوعيّة أو ذاتيّة أو تأمليّة.

وصف الطبيعة الصامتة:

يُراد بالطبيعة الصامتة الظواهر الطبيعيّة التي يراها الكاتبُ في هذا الكون بأرضه وسمائه والتي تشمل أجزاء الرياض والأزهار والأثمار والأنهار كما تشمل أجزاء السماء، وأفلاكها وأمطارها وسحابها وبرقها ورعدها.

وبما أنّ الكتاب يُعَدّ من الرسائل الوصفية، فعلينا أن نقف عندَ جوانبه الجماليّة؛ لأنّ هذه الرسائل تشبه لوحة فّنية جميلةً يرسمها فنّان مبدع لديه مهارة الرصد والتصوير والإبداع، ويكون قادرًا على نقل الموصوف في أروع صورة، بهدف تقديم لوحاتٍ وصيّة قادرةٍ على إمتاع القارئ فنّيًا، وإبراز ما لدى الكاتب من قدرةٍ على الوصف بأسلوبٍ يخلّد الفنّ والإبداع.

وقد رأينا تلك اللوحات الرائعة تنبضُ حياةً وتشعّ جمالًا في وصف الطبيعة الحيّة، وسنحاول الكشف عن مواطن جمالها في وصف الطبية الصّامتة.

وقد أدّت البيئة في العصر المملوكي دورًا بارزًا في ازدهار أدب الرسائل الوصفيّة، فوقف كتّاب هذه الرسائل على ما في الطبيعة من مظاهر متباينة، فوصفوا جمالها وألوانها وأصواتها وأصنافها، فكان للطبيعة الصّامتة نصيبُها الوافرُ من هذا الوصف، وشمل ذلك الكونيّات، وما في السّماء والأرضِ من ظواهر وموجودات، ومنها الأشجار والأزهار والثّمار، كما شمل الوصف البحارَ والأنهار، فبثّ الكتّاب الحياة في الطبيعية الجامدة، وشخّصوها كما فعل القدماء من الكتّاب، وكان لخيالهم الخصب دورٌ مهمّ في إضفاء الجمالِ والمشاعر على تلك الظواهر.

فقد تميّزت البيئة في العصر المملوكي بموقع طبيعيّ جميل في مصر وبلاد الشام، جعلها جنّة من الجنان، فالأرض متنوعةٌ بتضاريسها وأوديتها وجبالها، والمناخ متباينٌ ما بين أمطارٍ غزيرةٍ وبرودةٍ وثلوج في الشام، واعتدالٍ في مصر.

وفي هذا القسم سأقوم برصد ما أبدعه ابن حبيب الحلبيّ في وصف الطبيعة الصّامتة؛ إذْ قمتُ في بتحليل الفصول التي تناولت وصف السّماء والبحار والأنهار.

الكونيّات:

1- السماء وموجوداتها:

في الحديث عن وصف الكونيّات في كتاب نسيم الصّبا لابدّ من التذكير أنّني قدّمتُ تحليلًا للنصوصِ التي تناولت هذا الجانبَ في المبحثِ الأوّل من هذا الفصل، وسأركّز هنا على الجانبِ الوصفيّ فقط.

يتناول الكاتبُ في الفصل الأوّل: في السماء وزينتها وصفَ السّماءِ والنجوم، فيشبّه السّماءَ بروضةٍ مزهرةٍ وبقصرٍ واسعٍ جعلَ فيه النجومَ جواريًا أسفرَت عن وجوهها البيضاء، وبغديرٍ تناثر على مائه الأزهار، وببنفسجٍ أزهارُه تلألأ لامعةً، وبأرضٍ ملساء ألقيت عليها الدّرر، وبسترٍ أسودَ فيه لكلِّ نجمٍ ثقبٌ يظهرُ منه، كما شبّهها بجمرٍ يشعُّ من خلال الرّماد، وكلُّ هذه الصّفات المحسوسة تتطابقُ مع لوحة السّماءِ ليلًا، إذْ تبدو النجومُ مضيئةً في بحرٍ من السّوادِ، فيتمازجُ السّوادُ مع لمعانِ النجومِ التي تتدرّجُ في لمعانها من البياض إلى الاحمرار، فيقول:

"أيقظتني ليلة دواعي الهموم، فنظرت نظرة في النجوم" (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 59)، فإذا السماء كأنها روضة مزهرة، أو صرحُ كُنَّسٍ جواريه مسفرة، أو غديرٌ تطفو عليه الفواقع، أو بنفسجٌ نور أقاحه لامع، أو مسح ألقي عليه درٌّ غواص، أو سِترٌ به لِعَينِ كلّ نجم وصواص، أو جمرٌ في خلال رماد، أو كما قال من أجاد: [الوافر]

بِساط زُمرُّدٍ نُثِرَت عليهِ   دنانيرٌ تخالِطها دراهِمْ (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 59).

ثمّ ينتقل إلى مشهدِ المجرّة التي يشبّهها تارةً بنهرٍ يجري بمائه الصّافي، ليسقي النجومَ التي تبدو كزهرِ النّرجسِ، تقفُ كخيولٍ كريمةٍ تقبلُ عليها النجوم التي يسمّيها بأسمائها، فيصفها، ومنها: الثريّا وسهيل، والجوزاء، والفرقدان، والذِّراع، والجبهة، والعيّوق، والعوّا، والسّماك، والنثرة، والزهرة، والبهرام والإكليل.. وغيرها، فيصوّر كلًّا منها بأوصافه التي اشتُهر بها، ويأتي له بتشابيه مناسبة، فالثريّا تشبه أزهارَ النرجس أو كأسًا يُدار في مجلس، أو شمعًا متّقدًا أو شمسًا من ذهبٍ... وغير ذلك، وسهيلٌ يبدو بلونه الأحمر الذي يشبهُ خدَّ المحبوبةِ، يتحرّك بلمعانه كقلبِ المحبّ في الخفقان، أو كأنّه مصباحٌ تحرّك ضوءَه الرّياح، وغيرها من الصّفات التي تدلُّ على الرّفعةِ والعلوّ، ويصفُ الجوزاءَ وكأنّها شجرةٌ مضاءةٌ بمصابيحَ لامعةٍ، ثمّ ينتقلُ إلى وصف الفرقدين، وكأنّهما إلفان يتحدّثان حديث الحبّ، إلى أن يتقدّم الفجرُ مبتسمًا، ويذكرُ العيّوق بلمعانه، والعوّا بأعينها الحمراء التي تشبه نشاوى قد تغشّاها خمار، والسماك يخفي رمحَه، والنثرة بنجومها المنتظمة كالسُبحة، والنعائم تحرّكها ريح الجنوب، والزهرة التي تضيء بين النجومِ بلمعانٍ يفوق كلّ النجوم، وبهرام الذي يغارُ منه البهرمان، .... فيقول:

"ونهر المجرّة يجري في سندسها، ويسري ليسقي ذابل نرجسها، ويا له من نهر صفا ماؤه، وعُقِد على الأفق لواؤه، ينقلب القلبُ إليه، ويقف طَرف الطَّرف عليه، ويقبل نحوه الدبران، وينصب على شطّه

الميزان، ويحوم حوله النسران، ويعوم فيه الحوت والسرطان..." (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 61–63).

إلى أن يصل إلى ختام هذا الفصل، فيصفُ هبوبَ النسيمِ بعطره، وقدومَ الصبح طاردًا الليلَ بجيوشه، فيصل إلى الفائدة من تأمّله ووصفه، فتأمّله كان في عظمة السّماء وما فيها من نجومٍ وكواكب، يرى من خلالها عظمة الخالق الله (سبحانه وتعالى)، وما يؤكّد ذلك تضمينه آياتٍ من القرآن الكريم في فصوله، فيقول:

"فبينما أنا أسرّح في درَر الدراري نظري، وأروّض في رياضها جواد فكري. وأقدّس من هي مسخَّرات بأمره، وأنزّه من هدى خلقه بها في برّه وبحره، إذ هبّ نسيم السحر يروي عن أهل نجد أطيب الخبر، فعطّر الكون بعرفه، وملك الرقّ برقّته ولطفه، وأهدى الروح إلى الأرواح، وأطرب السمع بأحاديثه الصحاح...

فلمّا أتممتُ الإنشاء، والإنشاد وشرعت في طلب الإسعاف والإسعاد؛ تبسّم الفجر ضاحكًا من شرقه، ونصّب أعلامه على منازل أفقه، فانطوى نشر الليل، وكفّ من غمره الذيل، وارتفعت الحجب، وتأجّجت نار الشهب، واقتنص بازي الضّوء غرابَ الظلام، وفضّ كافور النور عن الغسق مسك الختام: [البسيط]

وشرّدَ الصبحُ عنّا الليل فاتّضحت سُطورُهُ البيضُ في ألواحِهِ السودِ

وفلّت جيوش الدجا، وحرّك النهار منه ما سجا، وجنح جنحه إلى الرحيل، وتلا لسان حال التحويل: ﴿يقلب الله الليل والنهار، إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ (القرآن الكريم، سورة النور، الآية 44) (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 63–65).

- وصف الشمس والقمر:

أثار النيّرانِ؛ الشّمسُ والقمرُ اهتمامَ الكتّاب في عصورِ الأدب العربيّ، وفي العصر المملوكيّ، فتناولهما الشعراءُ والكتّاب بالوصفِ الحسّي، مستعيرين هذه الأوصاف ممّن سبقهم إلى وصفها، غيرَ أنّهم اختاروا لوصفها ألفاظًا رقيقةً صاغوها بأسوبٍ سلسٍ، ناقلينَ المعاني الطريفةَ في أوصافهم وتشبيهاتهم، ولا يخفى أثر الوصفِ في القرآن الكريم على ما أبدعوه من قصائد وصفيّة أو رسائل وصفيّة.

فالشمسُ التي تزيّن السّماء نهارًا، مشرقةً في الصّباح تعلن بداية يومٍ جديد، وتختفي آخر النّهار لتفسح المجالَ للقمرِ والنجوم، فتحلّ محلّها زينةً للسّماء، هذه الشّمسُ تناولَها الكتّابُ بالوصفِ، وتتبّعوا

أحوالها من شروقها إلى غروبِها، فعدّدوا أسماءَها وذكروا صفاتِها في كلّ حين، ومنهم كاتبنا ابنُ حبيب الحلبيّ في رسالته الوصفيّة الموسومة بـ (نسيم الصَّبا)

فقد استمدّ الكاتبُ صفاتها من مشاهدته المباشرة لجمالها وحركاتها وألوانها، فأظهر إعجابه بالشمس والقمر، وقدّم للمتلقّي لوحةً فنّية بصريّةً تضمّنت الكثيرَ من التشبيهات الحسيّة، قدّمها بأسلوب حكائي اعتمدَ فيه السّرد، فقد بكّر يومًا بعد أداء الفرض، وأخذ يتفكّر في خلق السموات والأرض، ثمّ شرع في رسم تلك اللوحة الفنيّة الرائعة، فرسم مشهد شروق الشمس من خلفِ الأفق، فسمّاها (الغزالة)، وهو اسمُها عند طلوعها، ثمّ أخذ في تصوير قرنِها أو أعلاها وهو أوّل شعاعها، فاستعار تشبيهاته من البيئة، فشبّهه بجمرٍ في أعلى رأس عود، وبقطعة من دينار ذهبيّ يشعُّ ببريقه، وبقطراتُ النبيذِ الدّاكنةِ ترصّعُ الكأسَ اللامعَ، وبحسناءُ أخذت تكشفُ وجهها المنيرَ بعدَ أن كانَ مستورًا بنقابٍ أسودَ هو (الليل)، فشعّت أنوارُ وجهها تزاحمُ الضّياء، وبترس دولاب لُطِّخ بالزّعفران فصبغه بلونه الأرجوانيّ، وبمرآةٍ قُطِعَت للتوّ فلمعت قبلَ أن تُصقَل، وبوجه جميلةٍ في خمار أزرق؛ إذْ يصوّر بياض نورها ونقائه وامتداد زرقة السماء التي تحتضن الشّمسَ بصفائها، وبسبيكة زجاج منتفخة الجوانب، وببودقةٍ يذوبُ فيها الذّهبُ الخالصُ، فتظهرُ قدرة الكاتب الفائقة على توليد الصّور التشبيهيّة التي يصف فيها مشهد الشروق، حتّى تتجلّى الشمس في أوضحِ صورها في خيال المتلقّي، فيقول:

"بكّرتُ يومًا بعد أداء الفرض، أتفكّر في خلقِ السّموات والأرض، فلمحت المشرق بالنظر، وإذا قرن الغزالة قد ظهر، كأنّه جذوة نار، أو قطعة من دينار، أو كأس سُتر بعضه بالحباب، أو حسناء غطّت وجهها بنقاب، ثمّ كشفت أستارها، وألقت على الأفق أنوارها، وبرزت كأنّها كرة في ميدان، أو مجَنّ دولاب ضُمِّخ بالزعفران، أو مرآة لم تصقل ولم تطرق، أو وجه المليحة في خمار أزرق، أو سبيكة زجاج منتفخة الجوانب، أو بُودقة يحرّك فيها ذهب ذائب" (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 66).

هذا الوصفُ يثيرُ خيالَ المتلقّي، ويقلبُ السّمعَ أو (القراءة) بصرًا، فالمتلقّي يستدعي الصّورةَ الحسّيّة التي يشاهدها مرارًا إذا ما بكّر، ونظرَ إلى السّماءِ وقت الشّروق، فيشاركُ المتلقّي في جزئيّاتِ اللّوحة الوصفيّةِ، وكأنّه حاضرٌ مع الكاتبِ، يتأمّل معه هذا المشهد الرّهيبَ، ويتفكّرُ في عظمةِ الخلقِ والخالق.

ينتقل الكاتبُ إلى مشهدٍ آخرَ، فيرحّبُ بالشّمسِ (الجارية)، ويصف(عينها) الواسعة التي تبعثُ الغيرةَ في نفسِ الحور العِين لشدّة جمالِها، لينتقل بعد ذلك إلى صفاتِ الشّمسِ، فهي السوداءُ التي تكشفُ جبينَها، والسّراج الوهّاجُ، والجديرةُ بالسموّ والرّفعةِ، وواسطة عقد الكواكب، والواضحةُ التي لا شكّ فيها، وكأنّها برهانٌ لا يمسّه الارتياب، وهي العدلُ في الفَلَك العظيمِ، تنطقُ وهي صامتةٌ، وتتبدّلُ لترعى

العدد الثالث عشر – حزيران – June / 2025

مصالح النّاسِ، وتحدّد أوقاتهم، فهي الضّرورةُ لكلِّ شيءٍ؛ للناس والنباتِ، وعلم السنين والحساب، ويطلقُ عليها من الأسماءِ ما يناسبُ أحوالَها، في (ذُكاء) حينَ تذكو ويشتدّ لهيبها، و(الضّحى) حينَ يعلو منارُها، ذُكرت في كتابِ الله آيةً إلى أن تجري إلى مستقرّ لها، فيقول:

"فقلت أهلًا بالجارية، التي في طلعتها ما يغني عن الجارية، والعينُ التي تغار منها العِين، والجونة التي وضح منها الجبين، والسّراج الوهّاج التي تبرّجت بها الأبراج، أنت المخصوصة بالشرف والرفعة، أنت واسطة عقد الكواكب السبعة، أنت للحكمة برهان، وللفلك معيار وميزان، أنت الناطقة في صمتها، التي قصر البليغ عن وصفها ونعتها، أنت ملك مقدَّم، أنت النير الأعظم، أنت بُوحُ، التي تغدو في مصالح العالم وتروح، أنت ذُكاءٌ التي ذكت نارها، أنت الضحى التي علا منارها، أنت الشمس، ...." (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 67–69).

فقد استمدّ الكاتبُ صوره من مشاهدة الشّمسِ في أوقاتها المختلفة ليرسم هذه اللوحة بحركاتها وألوانها، فوصفَ شروقَها وحرارتها ولهيبَها، ولونَها وشعاعها، فقدّم للمتلقّي لوحةً بصريّة نابضةً مرسومةً بعنايةٍ ودقّة.

بعد ذلك ينتقلُ الكاتبُ إلى وصفَ الهلالِ وقتَ ظهوره، فقدّمه في لوحات تشبيهيّة وصف فيها هيئته وشكلَه المعوجّ الذي يشبه القوسَ، فالهلال يبدأ بالبزوغِ، وفي هذا المشهد تتجلّى مهارةُ الكاتبِ في اختيار ما يناسبُ من الألفاظ والتراكيب، ليقابل بين الليلِ والنهار، فالليلُ يبدو كزنجيّ أسودَ، والنهارُ يظهرُ كروميٍّ أبيضَ، وهي صورةٌ معهودةٌ مستمدّةٌ من البيئةِ والتراث، فيصف هذا الهلالَ بما يستحقّ من صفات، فهو كالقوس المشدود، أو زورقٌ ينحدر في بحر الظلام، وجزءٌ من سوارٍ، أو منجل حصاد، أو خنجرٌ مصقول،... الخ، وكلّها صفاتٌ تطابق صورة الهلال، الذي يبدو قوسًا اقتطع من دائرةٍ، وهو النون والمخلبُ... الخ، فالصورةُ البصريّة للهلال استدعت كلّ ما هو شبيهُ به، من موجودات الطبيعةِ أو حروف اللغة، أو أعضاء الإنسان (حاجب شيخٍ) وهذا الاختيار دقيق؛ لأنّ حاجبَ الشّيخ يكون مبيضًّا بعد أن احتلّ الشّيبُ شعرَ هذا الحاجبِ، ليضمّن هذا المقطع نصًّا شعريًّا في وصفِ الهلالِ، فيقول:

"فلمّا حجبت عن العيون شخصها، وخطف المغرب من يد المشرق قرصها، واكتحلت جفون الأفق بالنار، وطرد زنجيّ الليل روميّ النهار، بزغ الهلال، بأمر ذي الجلال، كأنّه قوس موتور، أو زورقٌ منحدر في بحر الدَيجور، أو شطرُ سِوار، أو منجلٌ معدّ لحصاد الأعمار، أو خنجرٌ مرهفُ النصلَين، أو نونٌ مرسومة الشأفة: الأصل من لُجين، شفة كأسٍ مائلة، أو مخلب عقاب صائلة، أو قطعة من قيد، أو فخّ نصب للصيد، أو حرفُ جيم، أو عرجونٌ قديم، أو حاجب شيخ أدركه الشمط، أو نعل من حافر

أدهم الدّجا سقط، أو ذباب سيف خرج من جفنه، أو راكع يعبد من لا يحدث أمر إلا بإذنه" (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 69–70).

والنصُّ الشعريُّ الذي تضمّنه هذا الفصلَ، يأتي مطابقًا للصّفاتِ التي ذكرها الكاتبُ، وكأنّ الكاتبَ اقتبسَ تلك الصّفاتِ من هذا النصّ، وزاد عليها من مداركه فأتى الوصفُ مفصّلًا تفصيلا، ليأخذ بيد المتلقّي ويسيرَ به من جهة الشّرقِ التي سطعت فيها الغزالةُ مشرقةً إلى جهةِ الغربِ الذي بدا فيها القمرُ هلالًا، يتّئد في مشيته ليزيّن السّماءَ ليلًا.

ثمّ ينتقل الكاتبُ إلى الحوار، فيرحّبُ بالهلالِ، مطلقًا عليه صفاتٍ جديدةً، مبشّرًا إيّاه بأنّه سيصيرُ بدرًا، ليظهر صفاته الفريدة، مخصّصًا إيّاه بالضمير (أنتَ)، ويضمّن النصّ أبياتًا من الشّعر، وآية من القرآن الكريم، كما تأتي التورية (ووجهك يا بثينةَ الحسن جميل) لتزيد الجمال جمالًا، وتثير في المتلقّي خيالاتٍ جامحةً، تطيرُ به على جناح الخيال، وتبعث في نفسه انفعالاتٍ عميقةً، ويصفُ الكاتبُ أطوار القمرِ، ويطلقُ عليه الأسماء بحسب مراحلِ تكوّنه، فهو الهلالُ، والزمهرير، والزبرقان، والقمر، والواضح، والباهر، والبدر، كما يذكر محاسنه، فهو مثَلٌ سائر، وبدر كامل، وهو مهدي الساري إلى الطريق، ورسول الأحباب، ومجلي ظلمة الليل ، وفي لياليه يحلو السمر، فيقول:

"فقلت: مرحبًا بمن ثيابُ مناوئه رثاث قُرّ عينًا ستعود قمرًا بعد ثلاث. ثمّ تصير بدرًا، إنّ في ذلك لذكرى...

أنت الزّمهرير الذي ليس له في نضارته نظير، أنت الزبرقان الذي له في كلّ شهر مهرجان. أيّها القمر كم مُحبٍّ طاب له فيك السّمر، أيّها الواضح الباهر، ما أنت إلّا مثل سائر، أيّها البدر الكامل، الّذي فضله للبريّة شامل، لا تأسَ على ما فاتك من الدّرج، ولا يكن في صدرك من الغزالة حرج...

جعلك الباري في السموات نورا، وكان أمر الله قدرًا مقدورا. فسبحان من جلا بمحياك حندس الغسق، وأقسم بك في قوله: ﴿والقمر إذا اتسق﴾، قدرك أثيث أثيل، ومحبك نبيه نبيل، ووجهك يا بثينةَ الحسن جميل..." (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 69–73).

- وصف السحاب والمطر:

السّحابُ والمطرُ جزءٌ من الطبيعةِ في فصلِ الشّتاء، وبما أنّ الأدباء اندمجوا بالطبيعة، وصوّروها بأدقّ تفاصيلها، فلا بدّ أن يكون للسحاب والمطر نصيبٌ من هذا الوصف، فقد رسم أدباء العصر

المملوكيّ لوحاتٍ رائعةً عن فصل الشّتاء ومظاهر الطبيعة فيه، وكانت هذه اللوحاتُ مفعمةً بالعواطف والأحاسيس.

وقد وصف كاتبُنا ابنُ حبيبٍ الحلبيّ الغيومَ والأمطار فركّز على وصف الأرض، وما تعانيه من جفافٍ بعد احتباس المطر، وما آل إليه أمر الناسِ في هكذا حال قاسية، في فصلٍ افتتحه بالتسليم بقضاء الله وقدره، وأنّ هذا القدرَ لا يكونُ إلاّ لحكمةٍ أرادها الله، فروى حكاية معاناة الناسِ والطبيعة منذ احتباسِ المطرِ إلى أن منَّ الله عليهم برحمته، وجادُ السّحابُ بوابل قطره، فبدأ النصّ بقولٍ ثابتٍ لا شكّ فيه، يتمثّلُ في حكمة الله سبحانه، ثمّ أخذ يصوّر أحوالُ الناسِ الذينَ أصابَهم اليأس، فكان الدمعُ وسيلتهم، وقد اشتكتِ الأرضُ من بخلِ السّحاب الذي جعلها تكتسي بالغبار، معتمدًا على استعاراتٍ تقرّب المعنى من عقل المتلقّي وتثيره، وفي أغلبِها تشخيصٌ لعناصرِ الطبيعةِ التي تشتاقُ وتعبسُ، كما يصفُ السّرورَ طائرًا قُصَّ جناحه، لتلبسَ الأرضُ ثوبَ الحداد، فيقول:

"إنّ للهِ تعالى حكمًا دائمَ النّفوذ، و(حِكَمًا) تهدي شفاء النجاة لمن بها يلوذ. وأسرارًا معناها دقيق، لا يفهمها إلّا أرباب التحقيق. أمسَكَ الغيث عن عباده في عام، فخاض كلٌّ منهم في بحر دمعه وعَام. وساءت الظنون بضَنِّ السّحاب، واشتاق النبات إلى سماع وقع الرّباب. فظمِئتِ الحياضُ، وعبست وجوه الرياض. واستدّت عيونُ العيونِ بالنّقع المُثار، وتعطّلت من حُلَى المُزنِ أجياد الأزهار. وذُهِلَتِ العقول لفقد الصّوب عن الصواب، وقُصَّ جناح السّرور وطارت الألباب. وطوي بساط الانبساط ووقع القول في هياطٍ ومياط. وطالت عهود العهاد، وتأهّبت الأرض للبس أثواب الحداد" (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 74–75).

وقد أراد الكاتبُ أن يثير ذهنَ المتلقّي مؤكّدًا دورَ الماء في حياة الناسِ والنباتِ، وكلِّ ما في الكونِ من كائنات، فالماء أصلُ الحياةِ وروحها، وانعدامه يعني الموت لا محالة، وقد قدّم الكاتبُ هذا المعنى في لوحتين متقابلتين تمثّلان حالتين متناقضتين؛ الأولى: افتقاد الماء، والثانية عودةُ الماء، وأثره في تبديل أحوال الناس والطبيعة، وهو تقابلٌ بين الموتِ والحياة؛ إذْ يصفُ أحوال الكون نتيجة إمساك المطر، وما يعكسه من آثارٍ سلبيّة، وما يليه من جفاف للأزهار، وفساد للثمار، وخراب للعباد، حتّى تتهيّأ الأرضُ للبس أثواب الحداد، وفي كلِّ هذا يظهرُ الموتُ بأشكالٍ مختلفةٍ، ليقابله في تصوير الحالةِ النقيضةِ، وهي حالةُ "الحياة" وما يحدث فيها من تغيّر في أحوال العالم، التي تتمثَّل في حالة الخصب والفرح التي عمّت الناسَ بعدَ أن أخذت زخرفها، فيقدّم للمتلقّي لوحاتٍ متتاليةً تصوّر مشهدَ رحمة اللهِ وعودةِ المطر بأدقّ تفاصيله فيصوّر الرياح التي جاءت راكضة تبشّر بقدوم المطر، ويصفُ السّحابَ

وهو يتكاثف ويتكاثر، تسوقُ الرياح بشرى للنّاسِ العِطاش، في صورة تعكسُ البيئة العامّة للعصر المملوكيّ الذي ظهر فيه الاهتمامُ بالجنود، فقد جاءت السّحبُ ككتائب الجنود التي تتوافد على السّماء، وهي سحبٌ كريمة تنجزُ وعدَها بأمطارٍ غزيرةٍ، ثمّ يصفُ أثرَها على النّاس وهي تبشّرُ بخيرٍ عميم، وشفاءٍ للشفاه الظَّامئة، فأنزلتِ الأمطار التي تشبه دموعَ الأسف لِما كانَ في حالة الجَدب والقحط، وهي صورةٌ معهودةٌ في عصور الأدب العربيّ، فيقول:

"فبينما هم يجرّون أذيال الكآبة، ويرفعون الدّعاءَ إلى مواطن الإجابة، تداركهم الله باللّطف الخفيّ، وانثال عليهم المَنُّ الحَفيّ، ونظر الله عليهم بعين حكمته، وحرّك ساكن الرّخاء لتجري بنعمته، وهو الّذي يرسل الرياح بُشْرًا بين يديّ رحمته، فمدّت أعناقها، وجدّت إعناقها، وركضت عادياتها، وجرت على أحسن عاداتها، وسَدَلت من أوديتِها الأردان، وأرخت العِنان في طلب العَنَان..." (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 75).

فأقلّت سحابًا ثقالًا، يستهلّ كرمًا ونوالًا، مسْكيّ الإهاب، خصيبِ الجناب، فسيحِ الرّحاب، صادق الوعود، متلاحق الوفود، كثير الأعوان والجنود، يؤذِن بالموارد الطّامية، وشفاء الشّفاه الظّامية، وإثراء فقير الثّرى، وإجراء دمعِه أسَفًا على ما جرى (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 75)

يقدّم الكاتبُ لوحة ثانيةً يصوّر فيها الرعدَ والبرق وهما متلازمان في الطبيعةِ، فتأتي لوحةُ وصف الرعد بدلالتها الصوتيّة، فصوته وصياحه مثلُ صوت ترنّم الحمام تارةً، وكصوتِ زئير الأسد تارةً أخرى، أمّا صورة البرق فهي صورةٌ بصريّةٌ فيظهرُ ويتوارى في الأفق كثغرٍ باسم، أو نارٍ تضطرم، أو سيف لامعٍ، ويشبهه بسلاسل الذهب، وبحصان أشقرَ وبكفٍّ خضيبٍ يبدي خضابه ويخفيه، وهي صورٌ حسّيةٌ معهودةٌ في ذهن المتلقّي، تثيرُ خياله، وتظهر قدرة الكاتبِ على توليد التشبيهات المتلاحقة في وصف المشهد ذاته، فيقول:

"والرعد يزجره ويسوقه بين يديه، فإذا قصّر صاح به وزمجر عليه، تارة يترنّم كالحمام، وطورًا يزأر كالأسد الضّرغام...

والبرق يلمحُ ويلمع، ويمنح ثمّ يمنع، كأنّه ثغرٌ أشنبُ، أو قبسٌ يتلهّب، أو حسامٌ يمان، أو فؤادٌ جبان، أو سلاسلُ من ذهب، أو أشقرٌ مالَ جلُّه حين وثب، أو أناملُ بعض الحساب، أو حيّةٌ تتلوّى، أو كفٌّ خضيبٌ يُمَدُّ ويُقبَضُ، أو خود تعرِض بعد أن تتعرّض (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 76).

ينتقلُ الكاتبُ إلى وصفِ السّحبِ، فيصفُ قوسَها مشبّهًا إيّاهُ بتاجٍ مرصّع بالفضّة والذهبِ، أمّا السّحابُ فقد توافدت على السّماء ككتائب الجيش تتهيّأ للحربِ، تحلّقُ حولَها فراخ الطيور، وتعترضُ

صحنَ السّماءِ براياتها العالية، لتبلغَ غايتها في سكبِ المطر، وحانَ وقتُ رحيلها، فيشبّهها بامرأةٍ حاملٍ حانَ وقتُ ولادتها، ففكّت أزرارَها ووضعت حملَها، وأجرت دموعها، وردّت الأماناتِ إلى أصحابِها، فأسكنتِ الغبارَ، وأطفأت الحرّ بمائها الكريم الذي نثرته لآلئَ على الأرض، فيقول:

"وقوسُ الغمام للجوّ نطاق، لا بل تاجٌ على مفارقِ الآفاق، يزهو بلُجَيْنِه وعسجده، ويفخر بياقوته وزبرجده...

فلمّا تراكمت السّحائب، واجتمعت حولها الكتائب، واتّسع صدرها، واستحكم أمرها، وحلّق بالجوّ ناهضها واعترض في الأفق عارضها، ونُصِبت راياتُها، وانتهت غاياتها، وآن رحيلها بتفريق شملِها، وحان وضعها وفصالُ حملها، أجرت مدامعَها، وردَّت ودائعَها، وحلّت نطاقها، وفكّت أزرار أطواقها، وحثّت الركائب، وأسبلت الذوائب، وسمحت بطلّها وطشّها، وسكنت رهج الغبراء برشّها، وأروت الحرّة برذاذها وهطلها، وأذهبت الحرقة بديمها ووبلها، وآثرت بجودها وجودها، ونثرت على بساط الأرض جواهر عقودها..." (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 77–79).

والملاحظ أنّ التشبيهاتِ جاءت متلاحقةً في تفصيلٍ دقيقٍ يمثّلُ مراحلَ تشكّل السّحابِ وتكاثفه، وسكبِ مطره، وتبدّده... الخ، وقد اختار لها الكاتبُ تشبيهاتٍ حسّيّة تعكسُ قدرته اللغويّة، ودقّته في الوصفِ، ممّا يجعل المتلقّي ينتقلُ معه بسرورٍ من مشهدٍ إلى آخر، وهو يحثّ خياله على مواكبة هذه الصور المتلاحقة.

ثمّ ينتقلُ الكاتبُ إلى وصفِ أثرِ السّحابِ في الناسِ والأرض، إذْ أسدت لهم معروفًا، وأغاثت ملهوفهم، وجعلت الأغصانَ تتزيّنُ بأوراقها التي يشبّهها بأقراطٍ وأعادت الحياةَ من جديد، لتنبتَ الأرضُ ويبردُ الحزنُ وتمتلئ الحياضُ بالماء، وتشرقُ الرّياضُ بزهورِها...الخ، وكلّ هذه الصّور ساقها الكاتبُ لتأكيد غايته الخفيّة، فالماءُ اصلُ الحياة، مستشهدًا بآية من القرآن الكريم، فيقول:

"كم أبدت إحسانًا وبرّا، وبرّدت من كبد حرّى، وأسدت معروفًا، وأغاثت ملهوفًا، وساقت إنعامًا، وسقت حرثًا وأنعامًا، وكفَت همًا حين وكَفَت، وقرّطت آذانَ الأغصان وشنّفت، وأنشرت أمواتًا، وأخرجت حَبًّا ونباتًا، ونشرت مِطرَفًا بعد الطيّ ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (القرآن الكريم، ج17، سورة الأنبياء، الآية 30)، وكم نقعتْ غليلا، ونفعتْ عليلا، وملأت حياضًا، ونوّرت رياضًا، وأذلّت درًّا مصونًا، وشرحت صدورًا، وأقرّت عيونًا، وألبست الحدائق برودًا عليها طلاوة، وأهدت للزهر قطرًا ظاهر الحلاوة." (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 79–80).

فقد اقتضت حكمة الله أن يجودَ السّحابُ بمائه، بعد انعدامه زمنًا، فتوافر الماء نقل الطبيعةَ والناس من حالة (الموت) التي كادت وقت انعدامه، إلى حالة الحياة بعدما انهمر من سحابه.

ويختتمُ الكاتب هذا الفصل بتأكيد ما بدأه في أوّله، إذْ يؤكّد حكمة الله سبحانه، فهو الذي (يبدئ ويعيد)، و(ينزل الغيث بعد يأس الناس وقنوطهم)، فيصف تبدّل أحوال الناسِ، وتحوّلهم إلى حياة راضية، كذلك يصفُ حال الأرض بعدما رويت، فالخصبُ حلّ محلّ الجدبِ، والزرعُ محلّ المَحْلِ، والفرح محلّ الحزن، فيستعيرُ من التشبيهات ما يناسبُ وصفه، (فوجه الأمل يضحك)، و(ثغور الأرض تبتسم)، و(رؤوس الأشجار تلبس تيجانها)... الخ، فقد فاضت الأرضُ بخيراتها، وتزّينت بزخرفها، وفاضت غدرانها، وعلت أشجارها، فيقول:

"فأمسى النّاسُ في عيشة راضية، يرفلون في حلل الرّفاهية، أمرعوا بعد الضّنك والشّظَف، وأخصبوا بعد الجدب والطّفَف، وأصبح محَلُّ المَحْلِ دارسًا، ووجه الأمل يضحك بعد أن كان عابسًا، وأخذت الأرض زخرفها بعد أن كان زرعها يهيج، واهتزّت وربَت وأنبتَت من كلّ زوج بهيج، فثغورها مبتسمة، وفرائد قلائدها منتظمة، ونمارقها مدبّجة، ورؤوس أشجارها متوّجة، وغدرانها طافحة، ومخايل السعادة عليها لائحة، وألسنة أهلها مشتغلة بشكر علّام الغيوب، وقلوبهم مطمئنة بذكره ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (القرآن الكريم، ج13، سورة الرعد، الآية 28)، ﴿يبدئ ويعيد﴾ (القرآن الكريم، ج30، سورة البروج، الآية 13)، ويمتحن العبيد، ثمّ يفتح لهم أبوابَ جوده الوافر وفضله المديد. ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾ (القرآن الكريم، ج25، سورة الشورى، الآية 28) (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 80–81).

2- الأرض ومحتوياتها:

بعد أن وصف الكاتبُ السّماء وما فيها ينتقلُ إلى وصف الأرض ومحتوياتها من جبال وبحار وأنهار، غير أنّني لم أجد وصفًا للجبال في فصول الكتاب، بينما وجدتُ فصلًا كاملًا يصف فيه البحرَ والنهرَ، بأسلوبٍ شيّقٍ بدأه بسردٍ يذكرُ فيه خوفَه من ركوب البحر ليمهّد للغاية الوصفيّة، فيؤكّد استسلامه للمقادير، غيرَ آبهٍ بتحذير الشّاعر من ركوب البحر، ثمّ ينتقل إلى وصف السّفينة من خلال لوحةٍ بصريّة، ينقلُ فيها صفاتها المعنويّة والحسّيّة، فيصف السفينةُ بأنّها (أمينةٌ على الأموال) لا يضيعُ فيها مالٌ لتاجرٍ أو مسافر، وهي صفةٌ معنويّة، لينتقل إلى الصّفاتِ الحسّيّة فيصفُ ضخامتها، وسَعة شراعها، وكيفَ تخوضُ ماء البحر بلا خوفٍ، مشبّهًا إيّاها بـ(الخيل المعقودِ في نواصيها الخير)،: (ذات دسر،

تجري مع الرّياح، تطيرُ بغير جناح،... الخ) ويشخّصها بأفعالٍ إنسانيّة: (ترد ولا تشرب)، ثمّ يتابع وصفه مبالغًا في صفاتها: (لها قلاع كالقلاع، وشراعٌ يحجب الشّعاع... الخ)، فيقول:

"يا لها سفينة، على الأموال أمينة، ذات دسر وألواح، تجري مع الرّياح، وتطير بغير جناح، وتعتاض عن الحادي بالملّاح. تخوض وتلعب، وترِدُ ولا تشرب. لها قلاع كالقلاع وشراع يحجب الشّعاع، وسكينة وسكّان ومكانة وإمكان، وجؤجؤ وفقار، وأضلاع محكمة بالقار وجسم عار من الفؤاد، وهو في عين الماء بمنزلة السّواد، بعيدة ما بين السّحر والنحر، من أحسن الجواري المنشآت في البحر. معقود بنواصيها الخير كالخيل لا تملّ من سير النهار ولا من سُرى الليل" (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 95–96).

ثمّ يتابعُ وصفَ السّفينة، مستعملًا صفاتٍ جديدةً يستعيرُها من عناصر الطّبيعة الحيّة، (الوعل، البعير، العقرب، العقاب، الغراب، التمساح، ...)، ليصف بعد ذلك قبطانها الماهر، فيصفه بالحاكم العادل، الحاذق الذي يعرف الكواكبَ ويهتدي بها، والمؤمن الذي يتّقي الله سبحانه، فيركبها مبتدئًا باسمه تعالى، وهو قائدٌ يأمر الجنود فيمتثلون لأمره، فيقول:

"كأنها وعل ينحط من شاهق، أو عرباض سابق يحثه سائق، أو عقرب شائلة، أو عقاب صائلة. أو غراب أعصم، أو تمساح أو أرقم، أو ظليم ثفر في الظلام، أو جواد فر مستتكفًا من صحبة الأنام. حاكمها عادل في حكمه، عارف بنقض أمرها وبرمه، يهتدي بالنجوم، ويبتدئ باسم الحي القيوم، يبرز من نواتيها في جنود، يشمل إحسانهم أهلها أيقاظًا وهم رقود. يتأنفون فيما يعمرون، ويفعلون ما يؤمرون." (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 97).

بعد ذلك يصفُ مشهدَ البحرِ حينَ ثارت الرّياحُ، وكيف صارت السّفينةُ تضطرب وتميل بركّابها، وهذا المشهد فيه الكثيرُ من الانفعالات التي نقلها الكاتبُ فترك المتلقّي يسرح في خياله الواسع، يتخيّل هولَ الأمواج واضطرابَ السفينةِ وكيفَ سيطرَ الخوفُ على ركّابها بعدّ أن عبسَ الجوّ وكتبَ حروفَ الغيمِ على صفحته، وثارت الرّياحُ التي جعلت السفينةَ تميلُ حتّى كأنّها تشربُ من مائه، ليبلغَ الخوفُ قمّته في القلوبِ، فالبحرُ بالنسبةِ للكاتبِ يمثّل اللجّة العميقة التي يهابُ ركوبَها لِما تحتويه من الغموضِ والخطر الكامنِ، فهدوؤه لا يعني الأمانَ والطُّمَأْنينة، بل هو الخفيّ الّذي يفاجئُكَ بثورانه واضطرابِه، فتواجه الموتَ المحدِق بالسُّفن، وتصارعُ من أجلِ البقاءِ إلى أن يمنّ الله عليكَ برحمته، فيقول:

"فبينما نحن من البحر في قاموسه، كتب الجو حروف الغيم في طروسه، وثارت ريح عاصف، يتبعها رعد قاصف. فمالت بنا الفلك واضطربت، ودنت شفتها من رشف الماء واقتربت، واستمرت ترفع

وتخفض، وتقرب وترفض، وتعلو على الأوتاد، وتهيم في كل واد، وتحوم وتحول، وتجود وتجول، وتضرم في الكبود نار ناجر، إلى أن بلغت القلوب الحناجر." (ابن حبيب الحلبي، بدون تاريخ، ص 97–98).

فالكاتبُ لم يصفِ البحرَ بشكلٍ مباشرٍ، إنّما وصفه من خلال مشهد السفينة وما عانى ركّابُها من هول الأمواج الثائرة، ليصف بعدَ ذلك مشهد النّجاة، والخروج من السّفينة إلى البرّ في جزيرة غنّاء خضراء، مليئةً بأشجار الفاكهة...الخ، ويستطرد في وصف الجزيرة، تائبًا عن ركوب السّفينة والبحر.

بعد ذلك يصف الكاتبُ النهرَ الصّافي العذب الذي يمرّ في رياض تلك الجزيرة، فيصفه بـ(اللين)، و(المزاج الهادئ)، تميل إليه الأغصان، وترده الظباء والغيد، وهو نهرٌ مياهه صافيةٌ (رمزٌ للأمان)، تنعكسُ النجومُ على صفحته ليلًا، فتظنُّها قد نُثِرت فيه، وترى أرضَه وكأنّها من ذهبٍ، وحصاه كأنّه الجواهرُ، مياههُ تتلوّى كالبطونِ الطريّة، أمّا اماكنُ دوران الماءِ فيه، فكأنّها سُرَرٌ، ويستعيرُ لمياهه وصفًا من القرآنِ الكريم (مياهه من تسنيم) (القرآن الكريم، سورة المطفّفين، الآية 27، جزء عمّ)، تمرّ عليه ريحُ الصَّبا فتصقله، ويحرّكه النسيمُ بهبوبِه، فيبدو كالدروعِ المنسوجةِ يتداخلُ بعضُها في بعضِها، أو كالمبارد المسنونة، أو الدمعِ ينحدرُ بتسلسلٍ على الخدودِ، أو أفاعٍ تتلوّى في زحفِها، أو الفضّةُ الذائبةُ تسيلُ متموّجةً، كما يشبّهه بسيفٍ صقيلٍ أو زجاجٍ مرقومٍ يعكسُ إشعاعَ الشّمسِ بألوانٍ متعدّدة، ليختمَ بتشبيهه بشرابٍ صافٍ بلغَ تمامَ الصّفاء، تفوح من آخره رائحةُ المسكِ (القرآن الكريم، سورة المطفّفين، الآيتان 24–25، جزء عمّ)، وهو بذلك يستمدّ تشبيهاتِه المتلاحقةَ من عناصرِ الطّبيعةِ التي يختاره بعناية فائقة، ومن ثقافته الدينيّة التي يوظّفها توظيفًا دقيقًا؛ ممّا يوحي بغايته الوعظيّة التي تتجلّى في أغلب فصول الكتاب، وكأنّ الوصفَ عندَه لبوسٌ لغايته هذه التي لا تخفى عن المتلقّي الحاذق الذي يقرأ ما بين السّطور، كما يصفُ تمايلَ الأغصانِ على صفحةِ مائه، وكأنّها شخوصٌ تتراقصُ، والظباء التي تردُه وكأنّه الغيدُ الجميلاتُ بثغورهنّ الصّافية يرشفنَ من مثيلها الصّافي الزّلال، ليكرّر وصفَ مشهدِ النجومِ التي تنعكسُ على صفحته، وكأنّها تشرقُ من فضائه، والقمرَ الذي يبدو قلبًا نابضًا في وسطه، فيقول:

"ثمّ نظر إلينا من لا تخفى عليه السّرائر، وأمر الجارية بحمل العبيد إلى بعض الجزائر، فلم ندرِ إلّا ونحن تجاه جزيرةٍ، تسرّ النّفوس بمحاسنها الغزيرة، فانحدرتُ ماضيًا إلى بينِها، نائيًا عن السفينة وساكنيها، فوجدتها مخضرّة الأفنان، مخضلّة الكثبان، بها من الياقوت ما يرجع خاسئًا مناويه، ومن الأشجار ما يحمل الفواكه والأفاويه. وبين رياضها نهر شديد الخصر، أرضه ذهب وحصباؤه درر، وأمواجه عُكَّن وداراته سُرَر... ليّن الأديم، مزاجه من تسنيم، يصقله الصَّبا ويفركه النّسيم، فكأنّه دروع

موضونة، أو مبارد مسنونة، أو دمع يتسلسل، أو أفاع تتملّل، أو ذوب فضّة يسيل، أو صفحة سيف صقيل، أو لوح بلور مرقوم، أو رحيق بالمسك مختوم...

إن مالت إليه الغصون فالشّخوص ترقص في الخيال، وإن كرعت منه الظّباء فالغيد يرشفنَ من ثغور أترابهنّ الزّلال. وإن أشرقت عليه النّجوم خلتَ الفلك يدور في أرجائه، وإن تجلّى له البدر حسبته قلبًا خافقًا بين أحشائه (نسيم الصّبا، طبعة دار الفرات، ص98–99).

بعدَ هذا الوصفِ يصل الكاتب إلى المشهد الختامي؛ (الخروج من الجزيرة، والرحيل إلى مصر)؛ بعد أن مكثَ في تلك الجزيرة مدّةً مفكّرًا بما عاناه من ركوب البحرِ ومن الشدّة التي جاء بعدها الفرج من مالك الملك، شاكرًا الله على نعمته، حتّى قرّر الذّهابَ إلى مصر، مشيرًا في النهاية إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (القرآن الكريم، ج12، سورة يوسف، الآية 99)، فيقول:

ربّما تجزع النّفوس لأمرٍ ولها فرجةٌ كحلِّ العقالِ

ولم أزل بها في أحسن حال، وأرغد عيش وأنعم بال، إلى أن حرّك الله مني ما كان ساكنًا، وأدخلني مصر بمشيئته آمنًا" (الحلبي، 2019: 100)

الخلاصةُ:

إنّ الكاتبَ وصف مشهد السماء ونجومها بصورٍ متعاقبةٍ تكرّرت فيها المَشاهدُ الكليّة التي تنوّعت لقطاتها الجزئيّة، وهذه المشاهدُ تدلّ على قدرته اللغويّة، وسَعة خياله، وإبداعه في انتقاء التشبيهات التي تناسبُ المشاهد، فقد استطاع وصف السّماء وزينتها من نجومٍ وكواكب وكأنّه خبيرٌ بأحوالِها وأوصافِها وأنواعها ومواعيد ظهورِها واختفائها، فنقل هذه الصورةِ الحسّيّة ليجعلُ المتلقّي يشاركه انفعالاته التأمّليّة، وتريه لوحةً ربّانيّة بديعةَ الصّنعِ تتجلّى فيها عظمة الصّانعِ، كما تبرز رفعةَ الكاتب، وما لديه من خيالٍ خصبٍ، وظّفه أحسن توظيفٍ، في وصف الطبيعةِ.

كما أنّ الكاتب قدّم وصفًا غيرَ مباشرٍ للّيلِ والنّهارِ من خلال وصف الشّمسِ والقمر، فالشّمسُ زينةُ النّهار، والقمرُ مصباحُ اللّيلِ يتناوبان ويتعاقبان بأمر الله سبحانه، فكان ماهرًا في وصفِ الهلال الذي سيصير قمرًا، مهارته في وصف الشّمسِ وأحوالها، فجاء تعاقب اللّيل والنهار في وصفه كما يتعاقبان في الطّبيعة، ولا غرابةَ في أن وصفه اهتمام الأدباء والنقّاد منذ عصره، إلى يومنا هذا.

وقد كان الكاتب عينًا ترصد بدقّةٍ مدهشةٍ تبدّل أحوال الناسِ والطبيعة في حالتين متناقضتين تتقابلان تقابل الموت والحياة، فوصف هاتين الحالتين وصفًا دقيقًا، لكنّ غايته التي يؤكّدها في كثيرٍ من فصولِ كتابه تظهرُ جليّةً، فقد تضمّن النصّ الوعظَ والإرشادَ، ويبدو ذلك من خلال ما ضمّنه الكاتب من آياتٍ قرآنيّة، وبخاصّة ما جاء في ختام النصّ، وكأنّه يلخِّص مضمون النصّ، ويحدّد مغزاه، بوصفه خلاصة تجربة إنسانيّة سابقة، لا بدّ من الاعتبار منها، وتأمّلها، والاستفادة منها.

كما أنّ الكاتب أراد أن يقارن بين الحياةِ الدّنيا بما فيها من أهوال واضطرابٍ وخوف، والحياة الآخرة بما فيها من سكينة وهدوء، وجنّات موعودة، وهذا الاحتمالُ دافعُه ما ساقه الكاتبُ من أوصافٍ تثيرُ الخوفَ في نفسِ المتلقّي وهو يتابعُ وصفَ أهوالِ البحر ومخاطره، فتتصاعدُ في نفسِه مشاعرُ الخوفِ، ليبدأ الكاتبُ بالأخذِ بيد المتلقّي إلى السكينة شيئًا فشيئًا، فينزله روضةً اختارَ لها الكاتبُ بعناية أوصافًا توحي بأنّها الجنّةُ، فيصفُ نهرَها في لوحةٍ بصريّة تبعثُ في نفسِ المتلقّي النشوةَ والطُّمَأْنينة، لكنّه لا يؤكّدُ هذا المعنى تأكيدًا قطعيًّا؛ إذْ جعل المكوثَ في تلك الرّوضةِ والاستمتاع بنهرها مدّةً غادرَ بعدَها إلى مصر، وهنا أيضًا لا نؤكّد هذا المعنى الخفيَّ إلاّ أنّنا نراه احتمالًا قائمًا، يتجلّى من تضمين الآيات القرآنيّة تلميحًا وتصريحًا، وفي المشاهد الوصفيّة كلّها تبدو المقابلات المباشرة، والخفيّة، بين مشهد (الدخول) ومشهد (الخروج).

ومن خلال ذلك يمكن القول: إنّ الكاتبَ تناولَ موضوعاتِ الوصف التي سادت في عصره، لكنّه جدّد فيها، وأضاف إليها من ثقافته الكثير، فضمّنها غاياتٍ نبيلةً بدت من خلال مهارته في توظيف الآيات القرآنيّة الكريمة، والقدرة على الإيحاء بما أراده من وعظٍ وإرشاد بأسلوبٍ لطيف.

المصادر

القران الكريم.

[1] ابن جعفر، قدامة. (1979). نقد الشعر (تحقيق كمال مصطفى، ط3). مكتبة الخانجي.

[2] ابن حبيب الحلبي، بدر الدين محمد بن عمر بن حسن. (1993). نسيم الصَّبا في فنون من الأدب القديم، والمقامات الأدبيّة (تحقيق محمود فاخوري). دار القلم العربي، حلب، سوريّة.

[3] ابن حبيب الحلبي، بدر الدين محمد بن عمر بن حسن. (2019). نسيم الصّبا (دراسة وتحقيق: محمد حسين المهداوي، كريمة نوماس المدني). دار الفرات للثقافة والإعلام.

[4] ابن حبيب الحلبي، الحسن بن عمر بن حبيب. (1999). المنتقى من درّة الأسلاك (تحقيق عبد الجبار زكار، ط1). دار الملاّح.

[5] ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري. (د.ت). لسان العرب. دار صادر، بيروت، لبنان.

[6] ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري. (1999). لسان العرب (تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، ج15، ط3). دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي.

[7] أبو علي، نبيل. (2007). الأدب العربي بين عصرين: المملوكي والعثماني. دار المقداد.

[8] التلمساني، أحمد بن محمد المقرّي. (د.ت). نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (تحقيق: إحسان عباس، المجلد الثاني). دار صادر.

[9] الحلبي، ابن حبيب. (1976). تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه (تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، ج1). مطبعة دار الكتب، القاهرة.

[10] الحلبي، ابن حبيب. (1986). تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه (تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، ج3). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[11] حاوي، إيليا. (1959). فن الوصف وتطوره في الشعر العربي (ج1). منشورات دار الشرق الجديد.

[12] عاشور، سعيد عبد الفتاح. (1976). العصر المماليكي في مصر والشام (ط2). دار النهضة العربيّة، القاهرة، مصر.

[13] عبد الهادي، حسن محمد. (2018). ديوان الإمام المؤرخ الأديب ابن حبيب الحلبي (ط1). دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

[14] عيال سلمان، عاهد طه عبد اللطيف. (2007). الرسائل الوصفيّة في العصر المملوكي الأوّل (648–784هـ). رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

[15] العسكري، أبو هلال. (1952). كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر (تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1). دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

[16] القيرواني، ابن رشيق. (1972). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج2، ط4). دار الجيل، بيروت.

[17] القيرواني، الحسن بن رشيق القيرواني. (1955). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج2، ط2). مطبعة السعادة، مصر.

[18] الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله. (د.ت). عقود الجمان وتذييل وفيات الأعيان (مخطوط

العدد الثالث عشر – حزيران – June / 2025

رقم 4434). مكتبة الفاتح، السليمانية، تركيا.

[19] السبكي، تاج الدين. (1413هـ). طبقات الشافعية الكبرى (ج10، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحي، ط2). دار هجر.

[20] ضيف، شوقي. (د.ت). تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والإمارات: الشام (ط2). دار المعارف، القاهرة، مصر.

[21] فضل، صلاح. (2004). نبرات الخطاب الشعري. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة.

[22] الحلبي، كامل بن حسين. (1419هـ). نهر الذهب في تاريخ حلب (تحقيق محمود الفاخوري، شوقي شعث، ط2). دار القلم، حلب.

[23] وهبه، مجدي، المهندس، كامل. (1984). معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب (ط2). مكتبة لبنان، بيروت، لبنان.